الدميم ...

للأستاذ حبيب الزحلاوى

— ٢ —

ألقت الباخرة « إيجيتو » مراسيها ، وأخذ الركاب يتزاحمون ويلتفون حول الضابط المكلف بالتأشير على الجوازات ، هذا يتوسل ، وذاك يطلب ، وذلك يتضرع ، وهذه تتدلل ، وتلك تغمز الضابط تستحثه التأشير على الجواز ، أى على السماح بالدخول إلى جزيرة « الورد » كما يسميها التليان .

لا بد من الانتظار الطويل ربما ينتهى الضابط من أسئلة سخيفة كان يخص بها السيدات الجميلات .

اقتعدت مقعداً بعيداً عن الزحمة أنتظر دورى ، وإذا برجل يقترب منى ويقول : إنه مصرى مثلى جاء ليقضى فترة من إجازة الصيف فى هذه الجزيرة التى قرأ وصفاً لها فى الصحف فخال أنها قطعة من جنات عدن ، وإنه ما جاء إلا مسوقاً بفعل الدعاية التى أحدثتها الصحافة فى نفسه ، فى حين أنه ألف الاصطياف فى مدن « الكوت دازر » وأخذ يتكلم عن مصايف فرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا بلهجة حارة ولفظ عذب وعبارات مختارة من صحيح اللغة ، وكان يدعونى صديقه .

نظرت إلى وجه هذا الرجل الذى طرح علىّ صداقته فإذا به يمثل الدمامة بله البشاعة خير تمثيل : أعمش ، أمرط الحاجبين ، أصلع ، فى جبينه وعلى خديه ندوب الجدرى ، وفى عنقه أخدود من أثر جراحة ؛ وهوفوق هذا أستاذ علم الزراعة فى الجامعة يحمل شهادة دكتور ... وقد أدهشنى عند ما قال لى إنه فى الرابعة والثلاثين من عمره وقد كنت أظن أكثر من ذلك .

لقد سحرنى هذا الدميم بعذب حديثه وطيب بيانه وحسن اطلاعه فانقدت إليه ، فذهبنا بعد أن تركنا الباخرة إلى أول فندق رضينا به اعتباطاً وقد أشر الضابط السمح على جوازى سفرنا .

ارتاحت نفسى إلى صداقة هذا الدميم لأن فيه من جمال الصفات الروحية والخلقية ما يستر تلك البشاعة الواضحة المنكرة ؛ ولأن خفة ظله ، وحضور ذهنه ، وبراعته فى التنكيت تلقى ستاراً على دمامته المنفرة .

اسمع ياصاحبى، أحسب أن المشوه كالأحدب والمخلع والأعرج وكل ذى عاهة يعتقد أنك ستسخر منه فيبادرك بسخرية مؤلمة . والظريف فى أصحاب هذه العاهات أن البارع منهم يمزج سخريته بالابتسام والضحك وبذلك يبطن الانتقام بالمرح .

كنت ألقى صاحبى الدميم فى الصباح على مائدة الطعام ، ثم تنتحى ناحية فى بستان أو حرج بعيدين عن الناس وضوضائهم لنقرأ ؛ وكان رفيق ولوعاً مثلى بقراءة الكتب ، ثم نعود فنجتمع فنتحدث فيما قرأنا .

لم أسمع من صديقى هذا حديثاً يخرج عن دائرة الكتب وأسماء المؤلفين . ومن غريب أطوار هذا الدكتور الجامعى أنه يقرأ الأدب ويتذوقه ؛ وله فى أدبائنا المعاصرين نظرات صائبات؛ وله آراء فى كلية الآداب أمسكت عن ذكرها ، ولكنه يجهل الحياة بجهله المرأة . وقد قال لى : إنه لا يعرفها ويهرب منها لأنها هبة الشيطان ، وعصا إبليس ، وسم الحية ، وأنه ما من رجل يطاوع هواه ويساير شهوته فيقترب من امرأة إلا وهو ضعيف العقل ملموس من خبال الغريزة ! ؟

ضحكت فى سرى من ضلال هذا الرأى وانتحلت لصديقى عذراً فى إبدائه على هذا النمط المخالف لسنة الطبيعة وقدّرت ظروفه الخاصة التى جعلته ينفر من المرأة ويتجنى فى الحكم عليها ، ولم يعد الحديث عنها يدور لنا على لسان .

أخذت الوحشة من الوحدة يدب دبيبها فى نفسى، والسأم يرين عليها من هذه البلدة الصغيرة الخالية من وسائل التسلية ، والتى لا أنيس لى فيها ولاسمير سوى الكتاب وصديقى الجامعى اللطيف .

كل ما فى طبيعة (رودس) هادئ : البحر والأشجار ، السماء والناس ، والقلوب كلها هادئة أو شبه متحركة . وقلما رأيت حتى فى الفتيات الرودسيات المرحات عيوناً تتطلع إلى القلوب

أو ترميها بنظرات ، فإن فعلت فهي تتطلع إليها خلسة تشتهيها شهوة هادئة ولا ترميها رمية صائبة .

كيف آلف الهدوء وطبيعة رفيقي على النحو الذي وصفته لك ؟ وكيف لا تتوق نفسي إلى صخب الحياة وقد اتخذت « بيرون » وكل مؤلفاته رفيقاً لي وسميراً ومعلماً في اعتكافي في هذه الجزيرة الهادئة ؟ كيف أجمع بين حياة هادئة فاترة فرضتها عليّ طبيعة وجودي في هذه الجزيرة الساحرة مع هذا الصديق الدميم عدو المرأة البعيد عن الحياة ، وحياة قلقة حيرى ، صاخبة فياضة تضطرب في صدر رفيقي « بيرون » العظيم وقد سارت عدواها إلى صدري ؟

صممت على الرحيل ... ولكن إلى أين ؟

قال لي رب الفندق : إن في أعالي الجزيرة فندقا جميلا قائما على القمة بين أحراج الصنوبر تحسن الإقامة فيه فترة من الزمن ؛ فقطعت الرأي على الذهاب إليه . ومن الدهش أني ما كدت أضع حقيبتي في السيارة حتى رأيت حقائب صديقي الدميم تلقى في السيارة ووجدت هذا الصديق نفسه ينحط في المقعد ويجذبني إليه جذباً وقال : أتهرب مني إلى الجبال وتتركني وحدي في هذا البلد الميت ؟

قلت قلبك هو الميت يا صديقي ! إن الحياة هي الحياة التي نعرفها نحن الأصحاء ، أما أنت المريض ميت القلب فلا تعرفها ولا تحس بوجودها .

لم يعر فورة نفسي التفاتاً ... وأشار إلى سائق السيارة أن يسير . ولما كانت السيارة تدرج على شاطئ البحر وتنعرج وتتسلق جبالا هي مجموعة من حدائق وبساتين كان صاحبي ملتزماً الصمت ، وما كنت أعرف أكان صمته ذاك وسيلة لتهدئة نفسي ، أم لعلك ما رميت به قلبه بالموات ولوك هذه الفرية .

ما أكثر وجوه الشبه بين فندق « الأيل » ويسمونه باللغة الإيطالية « شيرفو » وبين الأديار في لبنان ! سكان الأديرة قساوسة جرفتهم الأقدار إلى هذا المحيط الضيق فأخذوا يمنون أنفسهم بمحيط واسع تتحقق فيه الأماني وتظهر الغاية الإلهية من الوجود الإنساني عقب الخلاص من هذا العالم الفاني !

سكان فندق « شيرفو » أكثرهم مرضى ينتجعون العافية في هذه المصحة ، وشيوخ يأملون في العودة إلى الحياة ، حياة الشباب من طريق الاستراحة وطيب التغذية ، وفتية صغار يضيق بهم فناء الفندق فيتسرحون في الحرج القريب ويمرحون . وكنت أنا وصديقي الدميم كمريضين أو تسيسين ننتجع العافية أو نمنى النفس بسعادة لا نجدها إلا في قراءة الكتب وفي شيء آخر محبوب أكثر من الكتب .

قال لي صاحبي ذات مساء وقد عاد من رحلة في تسلق الصخور : « لقد وجدتها ، لقد وجدتها » .

كانت نبرات صوته تدل في هذه المرة على شعور لم أتبين مثله في كلامه معي من قبل ، فقلت : وجدت من ؟ من هي التي وجدتها ؟

ولما لم يجب على سؤالي ولو بكلمة واحدة لم أعر تاء التأنيث اهتماماً لأني عرفت فيه نفوراً من الأنثى وسمت حكمه الصارم على كل من يقترب منها .

تغيب عني في تلك الليلة فلم أر له وجهاً في غرفة المائدة ولا في قاعة الجلوس . وفي صبيحة اليوم التالي لمحته يهرول صوب وادي « أبولون » يحمل مراوة ليلحق بطائفة من النسوة ولم أرها انحدرت فيه قبله

من أين أقبلت هذه الزمرة من النساء ؟ ما علاقة صاحبي بهن ؟ من هي التي وجدها ؟ هل هي واحدة منهن ؟ لا أدري !

الفندق الذي أقيم فيه محدود مساحة وارتفاعاً ، أكاد أعرف نزلاءه بملامحهم ووجوههم واحداً واحداً ، وواحدة واحدة ، من شيوخ وأطفال كأن عنصر الكهول والشباب لا وجود له ولا حساب ، فمن أين أقبلت زمرة النساء التي لحق بها صاحبي واندمج فيها حتى صرت لا أرى له وجهاً لا في الصباح ولا وقت تناول طعام الظهر أو العشاء ؟ !

نضوت ثوب البلادة ، واطرحت الكتاب جانباً ، وشمرت أسعى . هداني السعي إلى فندق ملحق بفندقنا قائم على مرتفع ليس ببعيد ، تحجبه غياض الصنوبر عنا ، وتعج فيه الحياة ، ويصطخب مرح الشباب بأمواج من السرور ، ورأيت صاحبي الدميم تحف به جماعة من فتيان وفتيات يقهقهون . تقدمت قليلا وما كدت أدنو منهم حتى أحاطوا بي وأخذوا ينهالون عليّ بأقوال فيها ضحك ومزاح وعدم تورع في السخرية من شاب مثلي دأبه القعود والقراءة والنوم ، وآفته الكبرى مصاحبة رجل تتمثل فيه الدمامة .

أدركت مبلغ تسامح صاحبي معهم في المزاح حتى تجرأوا

علىّ أنا الذى لم أرهم قبل هذه اللحظة ، وكالوا لى بذات الكيل الذى رضى هو به .

أنقذت موقفى بتصويب سخرية لاذعة إلى جمال أبرز فتاة ، وإلى رجولة شاب مسكين فى الزمرة ، ولم أتعفف عن صد كل مازح أومازحة بضحكة المستهزىء .

شعرت بأنى كدت أعكر الجو ، وأجلب حقد النفوس على ، التفت إلى رئيس الموسيقى وطلبت إليه أن يعزف رقصة « الفالس » ، واجتذبت فتاة ليست على شيء من الجمال ، وأخذت أراقصها برشاقة وبراعة ... تقلبت خمس راقصات على ذراعى . ولم تكف الجوقة الموسيقية عن العزف لأنى دغدغت كف رئيسها فصار طوع إشارتى .

صفا الجو الذى عكرته بسلاطتى التى ما كان لى محيص عن التوسل بها لإنقاذ نفسى من المأزق الذى حشرنى فيه صاحبى على غير قصد . ولما فرغنا من الرقص تكونت حولى الراقصات اللاتى أعجبن برقصى فأخذت أحدثهن حديثاً طريفاً فى فن الرقص ثم فى الأزياء والمواطف وما تركت القاعة وقد كاد الصبح يتنفس حتى أيقنت أن سلطانى مد رواقه على الفتيات والسيدات والشبان النازلين فى ملحق الفندق

لم أنس أن آخذ صاحبى الدميم معى حين عودتى إلى الفندق ، ولما انفردنا قال لى إنه انتقل إلى ملحق الفندق « فعرف فيه فتاة جذابة أذكت بغتتها الجذوة الكامنة فى قلبه . وقد عقد عزمه على الاقتران بها وأنه سيتزوجها لا محالة .

قلت : أفى النساء عليلة نظر وحس وذوق ترضى بدمامتك وشناعتك ؟

أخرسنى الخبيث بأشارة فضحكت .

أعدت على مسمعه قوله فى المرأة أنها هبة الشيطان وسم الأفعى ، وعصا إبليس ؛ وحكمه على الرجل الذى يدنو منها بأنه خفيف العقل ، ممسوس بخيال الغريزة فأجاب .

كان حكمى ذاك قبل أن أعرف بغتتها .

قلت اذهب إلى فراشك لأنك متعب وسنتحدث فى النهار فى أمر زواجك .

قال محتجاً: لا ، لا أذهب إلى فراشى ولن أذهب إليه ، لا أطيق النوم . وارتمى على كتفى كطفل وقال بصوت باك كبكاء الطفل « لقد أحببت » سمم . بكل جوارحى العطشى ، ماعرفت الراحة منذ عرفت الآنسة « سمم » ولن يستقر بى قرار حتى أبنى بها

قلت : أجاد أنت فيما تقول أم هازل ؟

رفع رأسه عن كتفى ونظر إلىّ نظرة استفسار حادة فتابعت قولى : كيف تكون جاداً وقد استطرفنى موقف أصحابك من فتيان وفتيات منك ومنى ، وإمعانهم فى الضحك والاستهزاء بك إلى مخاشنتهم ، وكانت الآنسة « سمم » هذه إحدى الضاحكات ، وهل يشاد بناء الزواج على غير قواعد مكينة من الرصانة والجد ؟

قال : مصيبتى الكبرى فى وجهى المشوه الذى يثير الضحك ، ثم ما شأنى فيمن يضحكون منى فأسخر بهم فأهملهم بلحظة واحدة وأنكرهم كأن لا وجود لهم ؟ أما الآنسة « سمم » فما ضحكت قط منى ولا هزأت بى . كنت أراقبها وأستشف معانى ضحكها . كنت أحس نظراتها تهز مشاعرى ، وحنوها يظللنى كنعامة موسى الكليم ، وأن شفقتها علىّ قد تدفع بى إلى اقتحام الصعاب وتذليلها لأجل إسعادها ، وسأسعدها إذا رضيت بى زوجاً لها ، سترضى وسأتزوجها .

قلت أتعرف حكاية الشاب الفلاح مع ابنة الملك التى أحبها ؟

قال : لا أعرف الملوك والحكايات ، بل أعرف حكاية عرشى فى قلبى تستوى عليه مليكتى « سمم » .

قلت : « سمم » هذه هل سألت عنها ، هل عرفت أهلها ، هل كاشفتها الحب ، هل عرضت عليها الزواج ، هل رضيت بك بعلا ؟

صرخ فى وجهى صرخة شعرت بحرارتها تقلب دوّيها وقال : هذه أمور أترك لك تذليلها ، أما أنا فلست براغب فقط بل أريد حتماً الزواج من « سمم » وسأرغمها على الرضى بى .

عجباً ، كيف ترغم فتاة على قبول زواج ؟

قال : يالك من أبله ، لقد لمحت شفقتها بى ترتسم فى نظراتها ، والشفقة عنصر قوى من عناصر الرضى والحب .

قلت أوافقك جدلا على استنتاجك ، ولكن هب أنها ليست على دينك فكيف يكون الحل ؟

قال : من منا لا يقدم الدين الإنسانى على نواميس الأديان السماوية وكلها فى الجوهر واحد ؟

قلت : دستور الدولة والعرف .

قال : أستهين بالعرف وبالشرائع التى تحول دون اتحاد قلبين وأدار كتفه وانصرف .

(يتبع)

حبيب الزحلاوى